ازدواجية اللسان وأثرها على الفصحى

إعداد

د/ المختارية ميلود يحي بلعابد

أستاذ مساعد قسم: اللغة العربية ،

كلية : اللغة العربية والدراسات الاجتماعية، المدينة:

بريدة، الدولة: المملكة العربية السعودية

ازدواجية اللسان وأثرها على الفصحى

المختارية ميلود يحي بلعابد
قسم اللغة العربية، كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية، بريدة، المملكة العربية السعودية.
البريد الإلكتروني: mokhtaria.b@hotmail.fr

الملخص :
للغة المكانة العظمى عند الشعوب منذ فجر البشرية لأنها الأداة التواصلية التي استطاع الفرد أن يتعايش بها ومن خلالها مع الآخر، وتمر اللغة بالكثير من التحديات من أهمها "ازدواجية اللسان" هذا المصطلح اللساني الحديث الذي عُرب عن مصطلح la diglossie والذي اهتم بدراسة التعدد اللغوي ومدى تأثيره على اللغة الأم، وبالنظر إلى اللغة العربية فازدواجية اللسان تؤثر على تطورها وازدهارها، وتعيق انتشارها بالشكل الذي يجب أن تكون عليه، حتى أنها أصبحت تنافس اللغة العربية في مكانتها في المجتمع عامة وفي التعليم بوجه خاص، على اعتبار أنه من القطاعات الحساسة المنوط بها النهوض باللغة وجعلها لغة علم وحضارة، والعامية أصبحت لسهولتها تدخل في جميع المجالات خاصة منها وسائل التواصل الاجتماعي إذ سهلت عليها هذه الأخيرة الاندماج أكثر في المجتمع وبذلك فتحت لها الباب لمزاحمة اللغة الأم في مكانتها ودورها الريادي الذي تبوأته عبر العصور، ولا ريب في أن هذا الانتشار الواسع للعامية سيجعل اللغة العربية حبيسة أدراج التاريخ إذا لم نسع جاهدين إلى إعادة الأمور إلى نصابها بوضع استراتيجية بناءة للحد من زحف اللهجة وتمكنها البطيء من مجالات اللغة العربية الفصحى والتي تعبر الأم.

الكلمات المفتاحية: الازدواجية، الفصحى، اللهجة، العامية، التعليم.

Diglossia and its impact on classical Arabic

Mukhtariyya Miloud Yahya Belabed
Department of Arabic Language, College of Arabic Language and Social Studies, Buraidah, Kingdom of Saudi Arabia.
Email: mokhtaria.b@hotmail.fr

Abstract :
Language has had the greatest status among peoples since the dawn of humanity because it is the communicative tool through which the individual was able to coexist with others. Language goes through many challenges, the most important of which is "diglossia," this modern linguistic term that was derived from the term la diglossie, which was interested in studying multilingualism and the extent of its influence. On the mother tongue, and with regard to the Arabic language, diglossia affects its development and prosperity, and hinders its spread in the way it should be, to the point that it has come to compete with the Arabic language in its position in society in general and in education in particular, considering that it is one of the sensitive sectors entrusted with the advancement of the language. He made it a language of science and civilization, and the colloquial language became, due to its ease, interference in all fields, especially social media, as the latter made it easier for it to integrate more into society, thus opening the door for it to compete with the mother language in its position and the pioneering role it has assumed throughout the ages. There is no doubt that this wide spread of the colloquial language It will make the Arabic language consigned to the scrolls of history.

Keywords: Duality, Classical, Dialect, Colloquial, Education.

ازدواجية اللّسان وأثرها على الفصحى

تكستب اللّغة أهمية كبرى لدى المجتمعات من القديم إلى يومنا هذا، بحيث تعدّ البوتقة التي تنصهر فيها كل آمالهم وأفكارهم ماضيهم وحاضرهم، إضافة إلى أنها ترجمة حقيقية لحالتهم العلمية، ولطالما كانت ثنائية (اللغة – الأمة) جامعة بينهم إذ كلما ارتقى المستوى الحضاري والفكري للأمم زادت اللغة قوة ونشاطا وتألقا، وخير دليل على ذلك اللغة العربية وما مرت به من عصر الجاهلية إلى يومنا هذا من تقلبات فكرية حضارية، استطاعت أن تستوعبها ولم تعجز عن احتواء كل ما يجري حولها مهما اختلفت الظروف وتعددت الأسباب، وهاهو ذا المستشرق الفرنسي **أرنست رينان** (١٨٢٣-١٨٩٢) يشهد بذلك في قوله:" من أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القومية وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحاري عند أمة من الرّحل، تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها وحسن نظام مبانيها، ولم تعرف لها في أطوار حياتها طفولة ولا شيخوخة"[١]، وهي في كل عصورها عاشت القوة والاحتواء المرن لتقلبات العصر.

ولعراقتها الضاربة في عمق التاريخ، تولدت منها لهجات عامية تنوعت وانتشرت على مدى اتساع رقتها الجغرافية، وبعد أن كانت – هذه الأخيرة – طريقة لغوية دارجة تتناقلها العامة من الناس وتتميز بها كل منطقة من باقي المناطق في البلاد نفسها، وتعرف بها قبائل من قبائل، أصبحت ولظروف ما تزاحم الفصحى في مكانتها وتتنافس معها في مجالات عدّة، وأضحى بعضهم يحاول الارتقاء بها لتكون لغة التعاملات اليومية في التعليم والدوائر الحكومية ومواقع التواصل الاجتماعي وكل

١- داود الفرحان، اللغة العربية تنتظر الإنتفاضة، صحيفة الشرق الأوسط – صحيفة العرب الأولى- ، الثلاثاء: ٦شوال١٤٤٢هـ/١٨مايو ٢٠٢١م، aawsat.com .

المجالات الحيوية والحساسة التي لا يمكن للغة العربية الفصحى أن تتخلى عنها.

ومن هنا جاء هذا البحث ليسلط الضوء على **(ازدواجية اللّسان وأثرها على الفصحى)** خاصة مع ما نراه من تفشي ظاهرة العامية ودخولها إلى القاعات التدريسية في الأطوار التعليمية كلها، إضافة إلى الخطر الذي أصبحت تشكله هذه الأخيرة على اللغة الأم، حيث بدأت تتفشى في كل مجالات الحياة التي كانت قبل حكرا على اللغة العربية الفصحى، ومن هنا أصبح لزاما علينا الحديث عن هذه الازدواجية وأثرها على العملية التعليمية لما نراه من تفشي العامية في صفوف الطلبة في جميع الأطوار خاصة الجامعة حيث أصبح الطالب الجامعي لا يستطيع أن يتحدث اللغة الفصيحة بطلاقة إلا إذا كانت مخلوطة بلهجة يعتقد جازما أنها ستجعله يوصله أفكاره للسامع بسهولة وبدقة أكثر، هذا من ناحية أما من ناحية ثانية فما نراه من تراجع لمكانة اللغة الأم في المجتمع حيث أصبح طلبتنا لا يستطيعون التصريح بتخصصهم أمام الملأ حتى لا يعاب عليهم هذا التخصص ولا يستنقصه من كان في نفسه نقيصة من أصله ودينه ويحاول الجري وراء مخلفات الحداثة والتطور واللغات الأجنبية، وعليه جاء هذا البحث للإجابة على بعض التساؤلات والإشكاليات والتي من أهمها:

* هل تعد الازدواجية إضافة إيجابية للعملية التعليمية؟
* أم أن ازدواجية اللسان محاولة لانتزاع مكانة الفصحى؟
* ما المقصود بالازدواجية؟ وما المقصود باللهجة العامية؟
* كيف ولما وجدت العامية قنوات تدخل من خلالها إلى مجال التعليم الذي كان منذ الأزل حكرا على الفصحى؟
* ما العواقب المنجرة على دخول العامية إلى التعليم والاستعمال الأكاديمي المؤسساتي اليومي؟

وقد تم اتباع المنهج التحليلي في بحثنا هذا والذي يعتمد على استقراء ظاهرة الازدواجية في المجتمع ومحاولة الرجوع إلى بدايتها بالمنهج التاريخي وتفسير ظاهرتها وصولا إلى بعض النتائج أو الحلول للحدِّ من تفشيها في المجتمع.

وللإجابة على هذه الإشكاليات تم وضع خطة بحثية من شأنها لملمة بعض من تشعبات هذا الموضوع، حيث تم بداية الوقوف على أهم المصطلحات التي تعدّ كلمات مفتاحية ومحاولة التعريف بها لغة واصطلاحا، ومنها: العامية اللهجة والازدواجية، إضافة إلى الحديث عن تاريخ العامية وأهم العوامل التي أدت إلى ظهورها على اعتبار أنها ظاهرة لغوية قديمة، والحديث عن خطرها على اللغة العربية سواء على مستوى التعليم أو مواقع التواصل الاجتماعي التي طغت بضلالها على كل المجالات. وتم الاعتماد على مجموعة من المصادر والمراجع من أهم لسان العرب لابن منظور في التعريفات اللغوية، وأبو بكر محمد الزبيدي طبقات اللغويين والنحويين، وكتاب السياسة اللغوية في البلاد العربية لعبد القدر الفاسي الفهري، وكتاب ازدواجية اللغة نظرة في حاضر العربية وتطلع نحو مستقبلها في ضوء الدراسات اللغوية مقال من مجلة المور العراقية وغيرها من الكتب القيمة التي اعتمدت لإثراء البحث.

وللإجابة عن هذه التساؤلات وغيرها قمنا بداية بالوقوف على مصطلحات البحث ووضع تعريفات للكلمات المفتاحية للعنوان من مثل: الازدواجية – اللهجة العامية، كما قام البحث باستعراض أهم العوائق التي تواجه اللغة الفصحى بتدخل العامية في التعليم وفي الاستعمالات اليومية، كما عرج على سرد لعواقب ذلك، لينتهي بمجموعة من الحلول للحفاظ على سلامة الفصحى مكتوبة ومقروءة في جميع مجالات الحياة.

ومن مصطلحات البحث التي يجب الوقوف عندها بداية ليتجلى بوضوح موضوع بحثنا هو المصطلح الحديث **الازدواجية** " ويعود

المعنى اللغوي للكلمة إلى زوج: الزوج خلاف الفرد يقال: زوج أو فرد الزوج الفرد الذي له قرين [...] والشتاء زوج والصيف زوج والليل زوج ... ويجمع الزوج أزواجا وأزاويج "[١]، والواضح من هذا التعريف أن الإزدواج هو الشيئان المنفصلان من كل شيء ، وهما حتى في انفصالهما يعودان إلى نفس الأصل.

وأيضا ورد لفظ الزوج في قوله- تعالى-:﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[٢].

وترجع الازدواجية في المعنى الاصطلاحي إلى مجال اللسانيات الاجتماعية وهي ترجمة للمصطلح " **La Diglossie** والذي تحدث به **كارل كرمباخر** اللغوي الألماني في كتابه المشهور "مشكلة اللغة اليونانية الحديثة المكتوبة"، وذلك في عام ١٩٠٢م حيث تطرق إلى ظاهرة الازدواجية في اللغة أصولها وتطورها خاصة في اللغتين العربية واليونانية[٣]، وبالنظر إلى اللغة العربية فقد تولدت منها عبر السنين مجموعة من اللهجات التي صاحبت تطورها وسايرت تدرجها عبر العصور صعودا ونزولا، وعرّفها اللغوي الفرنسي **وليم مارسيه William marcais** قائلا: "هي التنافس بين لغة أدبية مكتوبة ولغة عامية شائعة للحديث"[٤]، ويجب لفت الانتباه إلى

١ – ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، باب (جيم)، فصل (زاي)، دار صادر، (د ط)،(د ت)، بيروت – لبنان،(د ت)، ص٢٩١-٢٩٢.

٢ – سورة الذاريات، الآية ٤٩.

٣ – ينظر: محمد راجي زغلول، ازدواجية اللغة نظرة في حاضر العربية وتطلع نحو مستقبلها في ضوء الدراسات اللغوية – المورد- مجلة تراثية فصلية، العدد ٢، المجلد الرابع عشر، بغداد العراق، ١٩٨٥م، ص١٨.

٤ – الزغلول محمد راجي، ازدواجية اللغة، بحث منشور في مجلة مجمع اللغة العربية الأردني العدد المزدوج، (٩-١٠) ، ١٩٨٠م، ص١٢٠.

أن هذه اللغة الشائعة ليست لغة قبائل بائدة ولا مجموعة من الناس يعيشون على هامش الحياة والحضارة، وإنما هي وسيلة تواصلية للسواد الأعظم من المجتمع إذا لم نقل كل المجتمع، تستعمل في سائر معاملاتهم محادثاتهم اليومية.

ويبقى مصطلح الازدواجية اللغوية يدل على وجود زوجين متلازمين من لغة واحدة، الأولى هي الأصل والأفصح والأقدم والأعلى مستوى لما لها من قواعد ونظم، أما الثانية وهي العامية أو الدارجة أو اللهجة الأقل مستوى لانبثاقها من اللغة الأولى الأم وعدم امتلاكها لقواعد ثابتة تضبطها.

أما المصطلح الثاني الذي يُعنى البحث بتعريفه هو **العامية** والتي أُخذت من لفظ العام والذي يقابله الخاص، حيث ورد في تهذيب اللغة **لأبي منصور الأزهري (٢٨٢ –٣٧٠هـ)** قوله" يقال رجل عُمي ورجل قصري فالعمي: بمعنى العام أما القصري فيقصد به الخاص"[١] وهذا الرأي يوافقه **ابن منظور** في لسان العرب حيث يرى أن" العامة خلاف الخاصة"[٢]، وهذا المعنى اللغوي للعام وحين اقترن باللغة وهي لفظ مؤنث أصبحت عامية.

ومما سبق جاء استعمال اللغة العامية أو الأصح اللهجة العامية وهي التي تستخدم في الشؤون اليومية العادية في التواصل بين الناس في مجتمع واحد، وقد استخدم اللسانيون المحدثون عدّة أسماء لها كقولهم: اللغة العامية ، والشكل الدارج واللهجة الشائعة، واللهجة العربية العامية ...وغيرها من المصطلحات[٣]، ويشترك أصحاب هذه اللهجة في كونهم يعيشون في حيز

١ ينظر: أبو منصور بن أحمد الأزهري، تهذيب اللغة، ج٠١، تح: عبد السلام محمد هارون، الدار المصرية للتأليف والترجمة، (د.ط)، (د.ت)، ص٢٢١.

٢ – ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب ج١٢، ص٤٣١.

٣ – ينظر: ايميل بديع يعقوب، فقه اللغة العربية وخصائصها، دار العلم للملايين، ط٠١، بيروت – لبنان،١٩٨٢م، ص١٤٤–١٤٥. (بتصرف)

مكاني ومناخي واحد ، إضافة إلى نفس العادات والتقاليد والأعراف والدين والتاريخ وهذا ما يجعلهم يتفقون مع بعضهم البعض على طريقة تواصلية واحدة تمكنهم من التفاهم والتكيف معا في كل الظروف، وتختزل هذه اللهجة ماضيهم وحاضرهم وتطلعاتهم المستقبلية.

ولا نبتعد كثيرا في حديثنا عن **العامية** إذا أخذنا بمصطلح **اللهجة** الذي يستعمل بنفس استعمالها، إذ جاء في القواميس العربية قولهم:"لهج الشيء إذا أغري به وثابر عليه وهو لهج وقولهم: هو فصيح اللهجة، واللهجة اللسان بما ينطق به من الكلام، وسميت لهجة لأنه كلا يلهج بلغته وكلامه، والأصل الآخر قولهم: لهوجت عليه أمره: إذا خلطته."[١]، وهذا من حيث التعريف اللغوي الذي يصب في معنى اللغة أو الكلام المنطوق، وتعدى ذلك إلى مفهوم الاختلاط.

أما اصطلاحا فاللهجة هي الكلام الذي يصدر عن العامة من الناس، فهي العامية أو الدارجة التي يتفق على منطوقها جماعة من البشر، وهي أيضا " اللسان الذي يستعمله عامة الناس –مشافهة– في حياتهم اليومية لقضاء حاجاتهم والتفاهم فيما بينهم. ومع مرور الزمن تتخذ هذه اللهجة صفات لغوية خاصة بها، متأثرة بالعوامل البيئية التي وجدت فيها"[٢]، وهي بذلك الكلام اليومي الذي يلهج به أفراد مجتمع ما للتعبير عن حاجاتهم وللتواصل بينهم ، كما يمكن أن نجد اختلافات وتباينات واضحة في لهجة البلد الواحد.

---

١ – ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، مادة: (لـ هـ ج)، ج٥، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (بدون بلد)، ١٩٧٩م، ٢١٤–٢١٥.

٢ – نايف محمود معروف، خصائص العربية وطرائق تدريسها، دار النفائس، ط٠١، بيروت –لبنان، ١٩٨٥م، ص٥٥.

وفي عموم القول فإن العامية أو اللهجة أو الدارجة هي لغة الاستعمال اليومي والتي انبثقت أو انشقت – إذا صح التعبير – عن لغة أم، وهذه الظاهرة اللغوية ليست حديثة العهد إذ أثبت وجودها علماء اللغة حتى بعد مجيء الإسلام حيث كانت هناك لهجات عربية موازية للسان الفصيح، وهناك عوامل كثيرة مساعدة على ظهورها، منها العوامل التاريخية وتعاقب الهيمنة الاستعمارية على شعب ما مما يجعله يتأثر بمستعمريه فيأخذ منهم بعض الألفاظ التي تبقى عالقة في لسانه، ولا خير مثال على ذلك من شعوب الشمال الإفريقي ، حيث إن لهجة دول المغرب العربي غنية بمجموعة من لغات الدول التي استعمرتها عبر التاريخ منها الرومانية والإسبانية والفرنسية ... إضافة إلى اللغة الأمازيغية التي تعتبر لغتهم الأصل وصولا إلى اللغة العربية التي وصلتهم مع الفتوحات الإسلامية.

ومن العوامل أيضا التحولات الاجتماعية التي تصيب الشعوب من الفقر والغنى والأمراض والأوبئة، أضف إلى هذا وذاك الظروف الثقافية التي تكوِن الطابع العام لطبقات المجتمع فكثيرا ما نجد أن الطبقة المثقفة في لهجتها يكون لها من الرقي والجمال ما لا يكون للطبقة الأمية التي لهجتها الخاصة المعبر عن احتياجاتها وميولاتها وطريقة تفكيرها، وهي تتسم في الغالب بالبساطة والمستوى المتدن.

ولا ريب أن اللهجة العامية تتسم هي الأخرى بالسيرورة، لمسايرتها للمستجدات الحاصلة في المجتمع ومحاولتها استيعابها والتعبير عنها، ولهذا نجد بعض الكلمات التي تظهر في فترة ما ويكثر استعمالها ثم تختفي لتحل محلها كلمات أخرى.

والغالب في استمرارية هذه اللهجات وامتدادها لقرون عديدة هو تعصب أهلها وتمسكهم بها مما يخلق صراعا قويا بينها في المجتمع الواحد الذي تختلف مناطقه وتضاريسه وبذلك تختلف لهجاته، وفي خضم هذا التعصب والصراع الدائر بينهم يبتعد الأفراد عن اللغة الأم.

والأكيد أن هذا الصراع لم يبق حبيس اللهجات فيما بينها بل تعداها إلى الصراع بين اللهجات والعربية الفصحى، حيث تحاول الأولى أن تزاحم الثانية مكانتها لتكون هي اللغة الرسمية في الاستعمال العلمي الأكاديمي وحتى الحياة اليومية العادية، وهذا ما نراه واضحا في القاعات التدريسية في مختلف المستويات من الابتدائي إلى الجامعي، ولا سيما في استعمال مواقع التواصل الاجتماعي ذات التأثير القوي على الناس على اختلاف شرائحهم، حيث لاحظت كما لاحظ أغلب أساتذة اللغة و الأدب العربي عجز الكثير من طلبتنا عن التعبير الصحيح الخالي من اللحن والخالي من تلقيح الفصحى بمفردات عامية دارجة ، بمعنى أنه أصبح من الصعوبة بمكان أن يعبّر الطالب في قسم اللغة و الآداب تعبيرا خالص الفصاحة حتى و إن كان بسيطا .

ولعلّ تلك صورة مصغرة عاكسة لحياة الأمة التي سيطر عليها وهم صعوبة العربية الفصحى ، و اعتبارُها لغةً "لا يمكنها أن تُجاري أممًا سبقتها في الحضارة وأسبابها ، وتقدَّمت عليها في العلوم وأبوابِها، وخلفتها وراءَها في الفنون وألوانِها، وهذا الوهم مسَّ أعز شيءٍ في مقومات الأمة، مسَّ لغتها، حتى تخلى نفر منّا عن قِيَمِهِ، وحاول آخرون التَّلاعبَ بهذه القيَّم، وتفسيرها بما تمليه حضارة العصر، والتمسوا عزّتهم في غير قيمهم، وغير لغتهم ، فاستخفوا بالقيَّم ، واستبدلوا باللغة لغة ، ظنًا منهم أن لغتهم لا تصلح لهذا العصر، الذي يستمسك فيه أهل كل لغة بلغتهم ، ويعدونها أسس حضارتهم "[١]، بل إن أمماً في هذا العصر بعثت لغتها من فناءٍ لتكون لغة الحياة، والسياسة، والعلوم.

١ – سليمان بن براهيم العايد، تعلم اللغة العربية بين وهم الصعوبة وعجز المعلم، محاضرات ألقيت بجامعة أم القرى، ١٤٢٢هـ، ص ٣

وقد يحلو لبعضٍ أن يقول: أنتم مازلتم تتحدثون عن الجوانب التعليمية في اللغة، وقد جاوزها الزمن، وهي معضلة لغوية على هامش الأطراف الهامشية، وتدعون لأشياء تمسّ بقاء اللغة في ظل العولمة ، ولغات الحاسوب وبرامجه ، التي تسهم بفرض لغةٍ واحدة، وعزل بقية اللغات ما لم يكن أهلُها قادرين على المواجهة العلمية والعملية بفرض لغتهم من خلال ما يُقَدَّمُ فيها من أنظمة وبرامج.

ويحضرني هنا قول أحد الباحثين معللا السبب في دعوته إلى استعمال اللغة الفصحى بقوله:" لعلّ مشكلة اللغة العربية تكمن في الضباب و السراب الذي يحول دون رؤية الحقيقة كما هي، مما يؤدي إلى عجز عن تشخيص الداء، ووصف الدواء، ورسم خُطَّة تَنَاوله، حتى إنّك لو طلبت من بعض معلمي العربية أو كثير منهم تحديد أو تعيين ما يريد من تعليم العربيّة لم يكن بمُكْنَتِه أن يعطيك جوابًا شافيًا كافيًا. من حقِّ كُلِّ من له صلة بالعربية معلمًا أو طالبًا ، أو مستعملًا أن يدلي بدلوه وأن يقول ما يفيد أو يظنه مفيدًا ، لكن ليس من حقّه أن يفرض على غيره ما يرى ،ولا أن يطرح رأي المختصين والمهتمين جانبًا"[1]. والأكيد أن جميع لغات العالم فيها من الصعوبة بما كان، ولا يستوي أهلها في درجة إتقانهم لها ولا في استعمالها بالفصاحة التي لابد منها، وهذا ما يميز اللغة الأم عن العامية.

ومعلوم أن العرب كذلك لم يكونوا كلُّهم شعراء، أو خطباء، أو كُتّابًا، أو على درجةٍ سواء في إتقان العربية واستعمالها، وتذوّقها، فلقد تفاوتت درجاتهم، وهذا ما جعلهم يقومون ألسنتهم بالشعر الجاهلي ويتهافتون على تأليف كتب النحو والصرف وغيرها من أجل ضبط ألسنتهم وحمايتها من

١ – سليمان بن براهيم العايد، تعلم اللغة العربية بين وهم الصعوبة وعجز المعلم، محاضرات ألقيت بجامعة أم القرى، ١٤٢٢هـ ، ص٤.

اللحن ومن جهة أخرى تأسيس علوم تقعد للغة العربية وتأسسها لها لتكون منارة شامخة على مر العصور.

"إذ قال رجل لابن خالويه: أريد أن أتعلم من العربية ما أقوم به لساني، فقال: أنا منذ خمسين سنة أتعلم النحو، ما تعلمت ما أقيم به لساني"[١]

هذه حقيقة اللغة العربية، فهي لا تختلف عن حال اللغات الأخرى، تحتاج إلى ممارسة ودربة من أجل تقويم اللسان مما أصابه من اعوجاج وانحراف، ويطلقه من عقاله بعيدا عن اللحن والمزج بين فصاحته ودارجته، سليما من العيب. وهذا الأمر لا يقف عند مراحل التعليم الأوّل، بل يرتقي مع حملته من طلاب المستويات العليا الثانوي والتعليم الجامعي، فأساتذة العربية لم يكن بوسعهم إلا أن أعلنوا ضيقهم بمستوى كثير من طلبة، إذ وجدوهم ضعافًا في كثيرٍ من وجوه الأداءِ اللُّغويِّ الأَوّلية، ويلحظون أنهم يَنقلون إلى الجامعة ميراثهم المدرسي من الضعف اللّغوي، ومزج في تعابيرهم وخطاباتهم بين اللفظ الفصيح، وغيره الدارج.

ولعلّ نفس هذه الجامعات، وخاصَّة أقسام اللغة العربي، مازلت إلى يومنا تلقى باللوم والمسؤولية على المراحل التعليمية الأولى التي تسبق الجامعة، وترى أنّ الجامعة تمثِّل مستوىً آخر في تحصيل المعرفة بالعربي، على أنحاءٍ منهجية متعمقة متقدمة، وأنّه ليس من وظيفتها أن تُشغل باستدراك ما تخلَّف في الطلبة من آثار المدرسة، فهل يليق بالأستاذ الجامعيّ أن يسمح لنفسه مخاطبة طلبته بلغة جمعت بين الفصاحة والدارجة؟ وهل يُعقل أنه يسمح لطلبته كذلك مخاطبته بنفس التعابير من دون أن يحرك ذلك مشاعره وغيرته على قيمه ومبادئه؟ إذن لقد تعدى الطرح

١ – سليمان بن براهيم العايد، تعلم اللغة العربية بين وهم الصعوبة وعجز المعلم، محاضرات ألقيت بجامعة أم القرى، ص١٦.

إلى القول بأي لهجة ندرس ونخاطب؟ فالمشكلة الكبيرة عندما يقوم بعض مدرسي اللغة العربية بمسايرة الضعف اللغوي الغالب على طلبتهم فيقومون بشرح دروسهم اللغوية والأدبية باللهجة العامية المحكية.

ولكنّ هذا الضعف اللّغويّ قد أصبح ظاهرةً جامعيّةً مستفحلة، ولم تجد الجامعات وسيلة يمكن بواسطتها التصدّي له، ذلك أنه أصبح يمثّل أمرًا واقعًا يعثُر فيه الأساتذة، ويجدون من غير المنطقيِّ أن يتجاوزوا عنه مُغْفِلين أو متغافلين، فالواقع أثبت لنا أن طلبتنا يتحرّجون من طرح تساؤلاتهم واستفساراتهم حول مواضيع تخصهم خوفا من عدم القدرة على التعبير السالم الخالي من اللحن أو المزج بين اللسانين الفصيح والدارج.

ويضيف أحمد الزيات في هذا المعنى فيقول:"قِلَّة العلم بالفصحى لا تعود إلى مطلبها الصعب، أو أمرها المعضل، وإنّما تعود إلى سوء الطريقة في تعليمها وضعف الرغبة في تعلُّمها، فلا المعلّم صادق الجهاد فيما يعطي، ولا المتعلّم حسنُ الاستعداد لما يأخذ"[1] ثم يواصل القول:"والنتيجة المحتومة لهذه الحال أن يصبح الغرض من دراسةِ اللغة هو اجتياز الامتحان بأيَّةِ وسيلةٍ ، فالكتب المطوَّلة تختصر، والمختصرة تختزل، والباقي بعد ذلك في ذاكرة الطالب يكون رموزًا لمعانٍ غائمةٍ عائمة، لا هي واضحة ولا هي مستقرَّة، فإذا تخرّج الناشئ بهذا الحظ المنكود من اللغة، وكان في نفسه ميلٌ إلى الأدب، وفي طبعه استعدادٌ للكتابة، انصرف عن كنوز الأدب العربيّ لأنّ مفاتيحها ليست عنده"[2] حتى إذا فاض قلبه بأفكار ومشاعر لا يستطيع تحريرها لأنه لم يكتسب من اللغة العربية إلا الشهادة التي يحملها، فينتقل إلى المستوى الأدنى والأسهل في الكتابة ويدعوا إلى

١ – الزيات، أحمد حسن، وحي الرسالة، ج٤، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ط٢، القاهرة– مصر، ١٩٦٦م، ص١٢١

٢ – المرجع نفسه، ص١٢٢.

تبسيط الأسلوب لتيسير الفهم، والخوض في جعل اللهجة لغة للتحدث والكتابة على اعتبار أنها الأسهل والأسرع في الوصول إلى الآخر.

كما يُعزى تدني مستوى الفصحى بين طلاب اللغة والأدب العربي، إلى تدني مستوى المقروئية في الوسط الطلابي، فمعلوم أن الطالب الجامعي في حاجة ماسة إلى مطالعة الكتب(الكتاب الورقي) لأنه بفضل المطالعة تقوى مناعة الطالب و"تنمو قدراته على تمييز الخبيث من الطيب و رفض الغثاثة و التشبث بالأفكار العالية "[١]، بفضلها يثري الطالب قاموسه اللغوي، و ينشرح صدره و تُفك عقدة لسانه، لأن الذي لا شك فيه أن عادة البحث والمطالعة وتصفح الكتب تنمي حواس الطالب جميعا و تعمل على إيقاظ فكره وحفز تطلعاته إلى ما هو أعمق، فذلك الذي يجب أن يكون عليه الطالب الجامعي إلا أن المتردد على المكتبات والأقسام الجامعية يتراءى له واقع غير ذلك، واقع هجر فيه الطالب المكتبة، والقليل المطالعة حتما لا يستطيع تنمية مهاراته القرائية، أو تعويد لسانه على التعبير الفصيح،

ولعل مزاحمة وسائل الإعلام للكتاب وتطور شبكة المعلومات العنكبوتية (الإنترنت)، والتي سهلت حصول الباحث على بحثه جاهزا كان وراء هذا التخلي والهجران.

إن الأمر لم يتوقف عند حدود عجز الطالب في قسم اللغة والأدب عن التعبير الفصيح السليم، أو مزاوجته حين الحديث في قاعات التعليم بين التعبير الدارج الشائع وبين الفصحى المطلوبة في مثل هذه المواقف، بل أن ينتقل اللسان الدارج من لسان حديث وحكي، إلى لسان مكتوب مرسوم، وقد يشاطرني الرأي كثير من الأساتذة الذين تعاملوا مع إجابات طلبتهم أنهم أحيانا كانوا يجدون بعض الإجابات الغريبة التي زاوج فيها صاحبها بين

١ – الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن، طبقات النحويين واللغويين، تح: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف،ط٢، القاهرة – مصر، ١٩٧٣، ص١٦٧.

التعبير الفصيح وبين العامية الدارجة، و لعل ذلك يعود إلى عدم القدرة هؤلاء على الاستمرارية في التعبير الفصيح ، لأنهم لا يملكون الملكة والوسيلة المساعدة على التعبير بطلاقة واستمرارية.

قد يكون من بين أهم مسببات ذلك تدخّل بعض وسائل الاتصال الحديثة وما فيها من مواقع التواصل الاجتماعي التي تحاول تحقيق ما عجز دعاة العامية عن تحقيقه، حيث وسائل الاتصال سابقاً كانت تتم بين الناس من خلال الخطابات والرسائل الورقية المكتوبة، والتي كان الجميع يجتهد في إخراجها في حلّة جميلة بالقليل مما يملكه من لغة فصيحة، جاء النقال أوالجوال – تعددت المصطلحات– وغيرهما من الوسائل التي أصبحت أساسية في الاتصال فغدت رسائل هذه الوسائل أداة تعبير وتخاطب مكتوب يعبر الناس من خلالها عما يريدون. ولكن المشكلة أننا نقلنا اللهجة العامية المحكية من حيز المنطوق إلى حيز المكتوب في رسائل الجوال والأنترنيت، أي أننا بدأنا ننقل العامية إلى المكتوب إضافة إلى المنطوق. والغالب في هذه الكتابات هو السرعة والإيجاز حتى لتحذف بعض الحروف وتلتصق بعضها ببعض، وتغير حروف بأرقام لسهولة النطق وسرعة الكتابة.

ومثل هذا السلوك واستمراره في الوسط الطلابي، يساهم في نقله من حيز التعامل البيني – بين عامة الناس – إلى التعامل الخاص داخل قاعات الدروس، وإجابات المسابقات والامتحانات.

فلقد أصبحنا وأصبح طلبتنا يفكرون جميعا بالعامية المحكية عندما نريد كتابة رسالة نصية بالجوال أو رسالة إلكترونية، يتخيل الشخص – الذي يريد كتابة الرسالة النصية – نفسه أنه يتكلم مع من يخاطب، فيسترسل في الكتابة باللسان المحكي العامي، فرسائل الجوال والفيسبوك أضحت رسائل (حكي)، أنا أحكي ليس بفعل التفكير بالنص المكتوب – أي المكتوب بالفصحى على عادة الرسائل الورقية –، وإنما التفكير بالنص المحكي، والمحكي يكون بالعامية وليس بالفصحى عند معظم الناس. ومن هنا يأتي

تهديد الرسائل النصية الإلكترونية وفي ذلك خطر على الفكر واللسان، لأنه من عاداتنا حتى وإن فكرنا بالعامية الدارجة فإننا حين الكتابة نحور اللسان الدارج إلى لسان فصيح، ولكننا في الجوال أو النص الإلكتروني نفكر بالعامية ونكتب بالعامية غالباً، والذي يجعلنا نتصرف هكذا هو السرعة التي توفرها لنا هذه الوسائل الإلكترونية في الكتابة

وكم نخشى على الفصحى عندما تضعف مستويات تدريسها في التعليم العام، ونخشى عليها عندما يضعف مستوى تدريسها في التعليم العالي، نخشى على الفصحى عندما تصبح العاميات المختلفة لغة التدريس في الجامعات والمعاهد، ونخشى على الفصحى عندما يتم التحول إلى الكتابة بالعامية، وعندما تكون كتابة الرسائل القصيرة الإلكترونية بلغة بعيدة كل البعد عن العربية الفصحى هي بداية التعود على الكتابة بالعامية، وهذا أخطر ما في الأمر.

الخاتمة

وصفوة القول، بات علينا التفكير بإصلاحٍ لبرامج اللغة العربية، وأهدافها، ومقاصدها، وأن نبذل جهدنا في تحويل درس العربية إلى مهاراتٍ تحتها مهارات، كما هو حال كل حرفة من الحرف، فإنها تقتضي من صاحبها الحب والإتقان، فلا يولد الإنسان صائغا أو نجارا أو نساجا أو ... وإنما يكتسب هذه المهارات تدريجيًا بالممارسة والدربة والمواظبة عليها، يبدأ في أوّل أمره ساذجًا بسيطًا كثير الخطأ، ثم يقلّ خطؤه، ويجود عمله، كذلك شأن العربية الفصحى تتطلب منا تعويد لسان ناشئتنا هذا اللسان، و تقويمه ورفض مزاوجته بلهجة أو لغة ثانية حين التواصل التعليمي.

ومن بين أهم النتائج التي يجب التأكيد عليها هو ما جاء به ابن خلدون في ضرورة الربيط بين اكتساب اللغة وتعلم اللغة، وأيسر السبيل لذلك هو إيجاد الأجواء المناسبة لعملية تعلم اللغة، وذكر لنا أن أسلم طريقة تربوية هي إحاطة المتعلم بالنتاج العربي الفصيح، والتعامل معه حفظاً وممارسة، وإن فُقد الجو الفطري المتحدث باللغة السليمة فثمة طريق آخر يقوم مقام السماع وهو حفظ النصوص الجيدة شعراً ونثراً وعلى رأسها القرآن الكريم، ليكون المتعلم قادراً على محاكاة هذه النصوص، ويضيف ابن خلدون قائلا:"ووجه التعليم لمن يبتغي هذه الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث، وكلام السلف، ومخاطبات فحول العرب في أسجاعهم وأشعارهم، وكلمات المولدين أيضاً في سائر فنونهم؛ حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم ولقن العبارة عن المقاصد منهم؛ ثم يتصرف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره على حسب عباراتهم، وتأليف كلماتهم، وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم؛ فتحصل له هذه

الملكة بهذا الحفظ والاستعمال، ويزداد بكثرتهما رسوخاً وقوة"[١]، والواقع أنه لا بد من شحذ الهمم من أجل صنع استراتيجية تربوية تحمل على عاتقها تعزيز اللغة العربية في نفوس الصغار قبل الكبار، وتوجيههم إلى الاعتزاز بلغتهم وقوميتهم.

ويجب أيضا الوقوف على بعض النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة وهي:

- يجب على مستخدمي اللغة العربية، سد آذانهم و عدم سماع تلك الصيحات المتعالية هنا وهناك، الزاعمة أن اللغة العربية الفصحى ليست لغة علم وتطور وحضارة أو أنها لغة مَتْحَفِيَةٌ و ظاهرةٌ أنثروبولوجيا تُدرّسُ وفقط، لأن ذلك قد يولِّد مركب نقص لديهم، فيجعلهم يشعرون بالدونية، فكثيرا ما نلاحظ ونسمع أن طلاب معاهد اللغة العربية وآدابها أصبحوا محبطين نفسيا لأنهم يدرسون اللغة العربية التي أصبحت في مجتمعنا ينظر إليها بعين الريبة والدونية، وفي المقابل نجد طلاب اللغات الأجنبية، يفتخرون ويعتزون، لكونهم يدرسون اللغة الفرنسية أو الإنجليزية باعتبارهما لغتي علم وتطور، وأصبحوا يعدون تعلم اللغة العربية موضة قديمة أكل عليها الدهر وشرب، مما أدى إلى العزوف عن تعلمها، بل إلى حد اعتبار ذلك مضيعة للوقت.
- ويمكن أن نقترح أيضا بعض الحلول للحد من الآثار السلبية لازدواجية اللسان العربي، وما ينجر عليه من تأثير سلبي على اللغة العربية الفصحى، وهذه الحلول هي من المقترحات العديدة التي ساهم بها اللسانيون حفاظا وحماية على سلامة اللسان العربي الفصيح، ولا يمكن تطبيق هذه الحلول على أرض الواقع إلا إذا لم نقتنع أنه لا يمكن

١ – ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، تح: درويش الجويدي، المكتبة العصرية، ط٢، بيروت – لبنان، ١٩٩٦م، ص٥٥٩.

التفريق بين (الفصحى والعامية) تفرقة تامة، فليس صحيحا أن النوع الأعلى مكتوب فقط والنوع الأسفل منطوق، فالحوارات في الفضائيات مثلا تبين مدى اختلاط هذين النوعين في الاستعمال بالتناوب حيث لم تعد العامية حكرا على ما هو شفوي بل تعدته إلى الروايات والإعلانات[1]، وبعد استفحال الوضع أصبح لزاما على اللغويين ضرورة وجود طريقة للتقريب بين الفصيح والعامي، وتقليص الفروق الواضحة بينهما لا سيما وأن " معظم الدراسات اللغوية اتفقت على استحالة أن تكون الفصحى لغة الحياة اليومية هي نفسها لغة الكتابة بما فيها من مظاهر إعرابية"[2]، ومن أجل هذا يجب الأخذ باستراتيجية مبسطة يمكننا من خلال تقريب الهوة بين الفصحى والعامية وفي نفس الوقت الحفاظ على الفصحى ويجعلها دائما في الصدارة، ومن بين أهم الحلول:

- تعليم الطفل منذ نعومة أظافره باللغة الفصحى وتكريسها في ذهنه باستعمالها المكثف، فاكتسابها له في سن مبكر يجعلها راسخة في أذهان الأطفال وذلك بتوفير الوسائل المساعدة على ذلك، بإعداد المؤطرين إعدادا علميا أكاديميا.
- ولأن الوسائل الإعلامية لها مفعولها القوي في الناس جميعا على اختلاف طبقاتهم وشرائحهم، فلا بد من تجنيدهم بحيث يسهل نشر اللغة الفصحى بشكل سلسل ومبسط مع الابتعاد عن الفصحى الجزلة القوية الألفاظ ذات الأسلوب المعقد حتى لا تنفر المتلقي خاصة وأن" لغة الإعلام عهي الفصحى المبسطة في مستواها العلمي ومن خصائصها

١ – ينظر: عبد القادر الفاسي الفهري: السياسة اللغوية في البلاد العربية، بحثا عن بيئة طبيعية، عادلة، ديمقراطية وناجعة، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط١، بيروت– لبنان، ٢٠١٣، ص١٣.

٢ – عبد الحمن بن محمد القعود، الازدواج اللغوي في اللغة العربية، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط١، الرياض السعودية، ١٩٩٧ ص ٥٧–٥٨.

التعبيرات الجديدة التي يحكم بصلاحيتها الاستعمال والشيوع"[١]، كما لا يفوتنا التنويه بضرورة استعمال الفصحى في البرامج الموجهة للأطفال خاصة الرسوم المتحركة وعدم فتح المجال الوسع لتلك المنطوقة باللهجة العامية، فالواجب تربية النشء على الفصحى ليصح لسانه.

١ – عبد العزيز شرف، الإعلام الإسلامي وتكنولوجيا الاتصال، دار قباء ، القاهرة– مصر، ١٩٩٨، ص١٠٧–١٠٨

- قائمة المصادر والمراجع:

*** القرآن الكريم**

١. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، تح: درويش الجويدي، المكتبة العصرية، ط٢، بيروت – لبنان، ١٩٩٦م.

٢. ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (بدون بلد)، ١٩٧٩م.

٣. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، ط٣، بيروت – لبنان،١٤١٤هـ.

٤. أبو منصور بن أحمد الأزهري، تهذيب اللغة، ج٠١، تح: عبد السلام محمد هارون، الدار المصرية للتأليف والترجمة، (د.ط)، (د.ت).

٥. الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن، طبقات النحويين واللغويين، تح: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، ط٢، القاهرة – مصر، ١٩٧٣.

٦. الزغلول محمد راجي، ازدواجية اللغة، بحث منشور في مجلة مجمع اللغة العربية الأردني العدد المزدوج، (٩-١٠)، ١٩٨٠م.

٧. الزغلول محمد راجي، ازدواجية اللغة نظرة في حاضر العربية وتطلع نحو مستقبلها في ضوء الدراسات اللغوية – المورد- مجلة تراثية فصلية، العدد ٢، المجلد الرابع عشر، بغداد العراق، ١٩٨٥م.

٨. الزيات، أحمد حسن، وحي الرسالة، ج٤، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ط٢، القاهرة- مصر، ١٩٦٦م.

٩. ايميل بديع يعقوب، فقه اللغة العربية وخصائصها، دار العلم للملايين، ط٠١، بيروت – لبنان،١٩٨٢م.

١٠. سليمان بن براهيم العايد، تعلم اللغة العربية بين وهم الصعوبة وعجز المعلم، محاضرات ألقيت بجامعة أم القرى، ١٤٢٢هـ.

١٠. عبد الرحمن بن محمد القعود، الازدواج اللغوي في اللغة العربية، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط١، الرياض السعودية، ١٩٩٧.
١١. عبد العزيز شرف، الإعلام الإسلامي وتكنولوجيا الاتصال، دار قباء، القاهرة- مصر، ١٩٩٨.
١٢. عبد القادر الفاسي الفهري: السياسة اللغوية في البلاد العربية، بحثا عن بيئة طبيعية، عادلة، ديمقراطية وناجعة، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط١، بيروت- لبنان، ٢٠١٣.
١٣. نايف محمود معروف، خصائص العربية وطرائق تدريسها، دار النفائس، ط٠١، بيروت -لبنان، ١٩٨٥م.

المجلات والدوريات:

١٤. داود الفرحان، اللغة العربية تنتظر الإنتفاضة، صحيفة الشرق الأوسط – صحيفة العرب الأولى- ، الثلاثاء: ٦شوال١٤٤٢هـ/١٨مايو ٢٠٢١م، aawsat.com .

References :

1. abin khaldun, eabd alrahman bin muhamad, muqadimat abn khaldun, taha: darwish aljuaydii, almaktabat aleasriatu, ta2, bayrut - lubnan, 1996m.
2. abin faris , 'abu alhasan 'ahmad bin faris bin zakaria, muejam maqayis allughati, madati: (lhija), ja5, taha: eabd alsalam muhamad harun, dar alfikr liltibaeat walnashr waltawziei, (bidun bildu), 1979m.
3. abin manzur, 'abu alfadl jamal aldiyn muhamad bin makram , lisan alearab , dar sadir, (d ta),(d ta), bayrut - lubnan
4. 'abu mansawr bin 'ahmad al'azhari, tahdhib allughati, ja01, taha: eabd alsalam muhamad harun, aldaar almisriat liltaalif waltarjamati, (du.ta), (d.t.
5. alzbidi, 'abu bakr muhamad bin alhasani, taha: muhamad 'abu alfadl abrahim, dar almaearifi,ta2, alqahirat - masr, 1973.
6. alzaghlul muhamad raji, 'iizdiwajiat allughat , bahath manshur fi majalat majmae allughat alearabiat al'urduniyi aleadad almuzdawji, (9-10) , 1980m.
7. alzayati, 'ahmad hasan, wahy alrisalati, ja4, dar nahdat misr liltibaeat walnashri, ta2, alqahirata- masr, 1966m.
8. aymil bidube yaequba, fiqh allughat alearabiat wakhasayisuha, dar aleilm lilmalayini,ti01, bayrut - lubnan,1982m.
9. sulayman bin barahim aleayid, taelim allughat alearabiat bayn wahum alsueubat waeajz almuealim , muhadarat 'ulqiat bijamieat 'umi alquraa , 1422h.
10. eabd alrahman bin muhamad alqaeudin, aliazdiwaj allughawiu fi allughat alearabiati, maktabat almalik fahd alwataniati, ta1, alriyad alsueudiat, 1997 .
11. eabd aleaziz sharaf, al'iielam al'iislamiu watiknulujia aliatisali, dar qaba' , alqahirata- masr, 1998.
12. eabd alqadir alfasi alfihri: alsiyasat allughawiat fi albilad alearabiati, bahatha ean biyat tabieiatin,

eadilatin, dimuqratiat wanajieata, dar alkitab aljadidat almutahidati, ta1, bayrut- lubnan, 2013.

13. muhamad raji zighlul, aizdiwajiat allughat nazrat fi hadir alearabiat watatlue nahw mustaqbaliha fi daw' aldirasat allughawiat - almurdi- majalat turathiat fasliatun, aleadad 2, almujalad alraabie eashra, baghdad aleiraqi, 1985mu..
14. nayif mahmud maerufun, khasayis alearabiat watarayiq tadrisiha, dar alnafayisi, ta01, bayrut - lubnan, 1985m.

almajalaat waldawryati:

15. dawud alfarhan, allughat alearabiat tantazir al'iintifadata, sahifat alsharq al'awsat - sahifat alearab al'uwlaa- , althulatha'a: 6shwal1442h/18mayu2021m, aawsat.com .